

## التكفير: فشل الدولة لا فشل الثقافة

د.أحمد رفيق عوض\*

### مقدمة:

نعتمد في هذا البحث المنهج التاريخي والمنهج الثقافي معاً، لمقاربة الظاهرة التكفيرية المتكررة في التاريخ البشري العام، فهي ظاهرة لا تختص بثقافة ولا بدين ولا بشعب ولا بزمن ولا بحضارة. التكفير باعتباره موقفاً عصابياً لا يحتاج الى أكثر من تحفيز ما، وهذه هي فرضية هذا البحث. اذ ان التكفير باعتباره إنكار الآخر، واحتكار النص، وابداء المخالف، يكمن دائماً في قلب كل حضارة وان مرحلة ظهور هذه النزعة العصابية اما تحتاج الى محفز مرضي أو سياسي أو اقتصادي ليس الا. وقد لوحظ ان موجات التكفير والتشدد وما يصاحبها من ارهاب فكري أو سياسي مورست على مر التاريخ، في معظم الحضارات والثقافات (١).

اذن، هذه الظاهرة تاريخية، لا مدهشة ولا جديدة، لها ملامحها ومميزاتها وأدواتها ورموزها وشخصها وآلياتها ونتائجها أيضاً، فالتاريخ حلبة للصراع بين الخير والشر، وهو صراع غير محسوم النتائج، على عكس المقترحات الغربية، الرأسمالية منها والشيوعية، اللتين اقترحتا ان التاريخ يسير نحو "ديموقراطية ليبرالية" أكيدة أو "مجتمع شيوعي لا طبقي" يشبه الجنة على الأرض. لا أحد يستطيع ان يقرر نهايات التاريخ أو مساراته، وكل ما يمكن قوله ان هناك قوانين جزئية لا تشكل في مجموعها قانوناً كلياً (٢)، والتكفير -ربما- هو احد هذه القوانين الجزئية، فالتكفير بمعنى مغادرة الجماعة ورفضها ومحاولة الاستيلاء على حاضرها ومستقبلها هو حدث تاريخي يظهر عادة في

---

\* كاتب وباحث من فلسطين

الازمات العنيفة والآفاق المسدودة واختلاط المفاهيم أو اضطرابها، كما يظهر عندما تغيب النماذج والشخصيات الكاريزمية والأفكار المسيطرة.

## التكفير في التاريخ الاسلامي:

كانت الموجة التكفيرية الأولى التي شهدتها التاريخ الاسلامي هي موجة الخوارج (٣)، ومصطلح الخوارج مصطلح كبير وواسع، تدخل تحته كثير من الحركات الصغيرة والكبيرة والأفكار المتباعدة والمتقاربة والشخصيات الكاريزمية والمغامرة وحتى الخفيفة، لا يعنينا هنا كثيراً ما قالوه في العقيدة الاسلامية، فقد كفروا حتى الصحابة، وأحلّوا قتالهم ودماءهم وأموالهم وأحلّوا حتى قتل أطفالهم في بعض فتاويهم الشاذة، ولكن ما يهمنا هو، لماذا ظهرت هذه الموجة في سنة ٦٥٦ ميلادية؟!، ان الاجابة على هذا السؤال تشكل محور وهدف هذا البحث، فقد ظهر هؤلاء إثر الحرب التي وقعت بين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك الخلاف المرير والصادم حول الأحقية بالحكم والخلافة. ان هذا الخلاف وما نتج عنه من حروب وانقسامات و تحالفات على مستوى البلاد والقبائل، خفض السقوف كلها، وجعل الجميع محل انتقاد وجدل، بمعنى آخر، بهتت الرموز وتم الاجتراء على الكبراء، والأهم من ذلك. تم الاجتراء على النص وتفسيره وتأويله، لأن النص هنا يتحول الى اداة سياسية تدعم هذا الطرف أو ذاك، وفي مثل هذا الجو المشحون والمضطرب، حيث تضيع البوصلة ويختلط الصحيح بالفاقد، وتختفي المعايير وتحضر المصالح، فقد ظهر ابناء القبائل البعيدة والمحرومة والموتورة والصحراوية ايضاً، لتطالب بحضورها وقوتها وتستعيد ثاراتها القريبة والبعيدة، وليس من الصدفة أن يكون الخوارج جلهم من قبائل ربيعة الصحراوية الفقيرة التي لم تستفد كثيراً من الغنائم والثروات الجديدة، والتي لم تنس ثاراتها مع قريش أو مع مضر عموماً، وفي مثل هذا الجو الذي انخفض فيه مستوى المثال الحيوي والفعال، ظهر التكفير تعبيراً عن الأزمة العميقة التي دخلت إليها الأمة، ولكن الخوارج وبدلاً من تقديم مقترح سياسي وفكري وعقائدي يجاور المقترحات الأخرى، ذهبوا بعيداً في افتراحتهم، فقد كفروا الجميع وافتوا بقتل الجميع؟! من هنا يبدو التكفير موقفاً طفولياً وعصابياً من الدرجة الأولى، ومن هنا تأتي هشاشته ايضاً. فهذا الموقف العصبي عادة ما يحتاج الى مبررات ذهنية وعقلية وفقهية، فبحثوا في النص المقدس، ولكن هذا النص لا يمكن ان يسعفهم، فلم يجدوا حرجاً في لِي الآيات و تفسيرها او تاويلها بخفة تثير الضحك (٤). هل يكفي هذا الكلام لفهم ظاهرة الخوارج التي شغلت وما تزال الثقافة العربية والاسلامية؟ اعتقد أن ذلك لا يكفي، فالأزمة التاريخية تنتج مفاعيلها الغامضة وآلياتها التي قد لا نستطيع الاحاطة بها. فالأزمة التاريخية هي مظالم متعددة وأوضاع مختلفة وسلوكات تتميز بالعجب. الأزمة التاريخية هي افق مسدود واحساس بالعبث واللاجدوى، وشعور بأن الكون مختل. انا شخصياً لا اصدق ان رجالاً حكماء

ومتقشفين ودائمي العبادة مثل بعض الخوارج يُقدم على أو يقبل قتل أطفال المسلمين دون أن يكون قد وصل الى قاعٍ عميق من الاحساس باختلال الأوضاع وعدم سلامتها أو صحتها، أو أنها لا تصلح سوى بهذه الطريق التي اختارها، هذا هو التكفير كمرض وهذا التكفير كأزمة تاريخية. هو مرض من ناحية ذهنية ونفسية ولكنه أيضاً يحمل مضامين اللحظة التاريخية المظلمة التي نتج عنها. فإذا اضفت الى ذلك الجهل والشعبوية والمصلحة والهوى والهوس، فإن ظاهرة التكفير تصبح مأساة حقيقية.

استمرت ظاهرة الخوارج طويلاً، وبسبب الحروب والمطاردة الأمنية والحملات الاعلامية، فقد طُوّر هؤلاء الخوارج لأنفسهم بنياناً فقهياً وسياسياً اعتمد على فكرة الولاء والبراء، الأمر الذي ادى بهم الى الانعزال الجغرافي (وهي ظاهرة ستظل تتكرر الى أيامنا هذه) الى ان تم القضاء عليهم وعلى حركتهم عندما تجاوزتهم الأزمات وظهور شخصيات قوية أفقدت الخوارج جُلّ مقولاتهم وحولتهم الى هامش مزعج في كيان المجتمع حينذاك. بمعنى آخر، سيطرة الأمويين وبناء دولتهم وتغييرهم لمواقع القرار والتأثير وتوجيه الجهود نحو البناء والفتح والجبهات الاخرى، جعل من الخوارج بدون جدوى أو كأنهم معلقون في الماضي ( أحد مقاتل التكفيريين تعلقهم بالماضي وعدم اعترافهم بالزمن)(٥).

### ظاهرة شيخ الاسلام ابن تيمية:

الحدّة و الاستقلالية التي تميز بها شيخ الاسلام ابن تيمية كانت بسبب الأزمة التاريخية التي عاش في قلبها وعاشت في قلبه أيضاً، فقد رأى هذا الفقيه مدينة دمشق تسقط أمام عينيه، ورأى كيف هرب القادة والأغنياء منها وتركوها للغازي المغولي، وقد تحمل مسؤولية الدفاع عن المدينة. واجراء مفاوضات مع الغزاة ليحميها. ابن تيمية الذي عاش في أحلك الظروف حيث فساد الملك وغزو الأعداء وجمود الفقه وتكلسه ونفاق العلماء وتزلفهم، جعل منه رجلاً حاداً وسليطاً ومستقلاً أيضاً، وهو أمر جعله يسجن ثلاث مرات في دمشق والقاهرة وان يعتدى عليه في الشارع ايضاً من قبل البلطجية وزعران دمشق والقاهرة(٦). بكلمات أخرى، فإن ابن تيمية نتاج أزمة تاريخية كبرى، اضطرته الى أن يكفر بعض الجماعات وان يعارض بعض الاجتهادات ويقترح اجتهادات أخرى اسست لبعض المواقف المتطرفة فيما بعد. وهذا يعني ان معارضته لأبي موسى الأشعري وهجومه العنيف ضده، كان يمكن لها ان تبقى في حدود الاختلاف المعروف بين الفقهاء لولا ان تم التقاطه أو استثماره ليتحول الى ما يشبه التكفير أو التكفير ذاته على أيامنا هذه. ابن تيمية، مرة أخرى، كان حاداً وقاسياً بسبب ما رآه من تفكك للدولة وسيطرة للجهل وقبول للذل والخضوع والتعاون مع الأجنبي، ولهذا، كان الرجل مستقلاً حتى في فقهه عن استاذه الكبير ابن حنبل الذي تأثر به كثيراً ولكنه خالفه أيضاً(٧).

## ظاهرة التكفيريين في العصر الحديث:

وقد تمثلت هذه الظاهرة في الموجات التكفيرية الثلاثة التي ظهرت في السبعينات من القرن الماضي. وقد تم القضاء عليها من خلال أساليب القهر والاحتواء والمهادنة، ثم ظهرت الموجة في التسعينات من القرن الماضي أيضاً، وقد تم التعامل معها بالاساليب السابقة، ثم انفجرت الموجة الثالثة الحالية بطريقة أوسع واعمق وأخطر بكثير من كل الموجات السابقة، ويمكن القول أن الموجة الاخيرة فاقت في اتساعها ومضامينها وآثارها ما فعله الخوارج ذات يوم(٨). وسنعود الى هذا بعد قليل.

## اسباب محتملة للتكفير:

حسب الادعاء الذي نتبناه هنا، فإن التكفير محاولة لبناء هوية جديدة ومغايرة، والمعضلة ان هذه الهوية المدعاة أو المفترضة لا تستطيع الدفاع عن نفسها طيلة الوقت وذلك لعيب اصيل في هذه الهوية، وهو عيب يتعلق بمرجعياتها من جهة وعدم قدرتها على الصمود امام تقلبات الزمن والتحديات الجديدة. الهوية الجديدة التي يحاول المكفر ان يؤسس لها تتميز بأنها جوهرانية، ثابتة، لا تقبل التجزؤ أو الجدل أو الحوار، وهو أمر يكاد يكون مستحيلاً في ظل عولمة تفكك الهويات أو تقدم تعريفات جديدة لها، العولمة بما هي تفكيك وهويات متداخلة ومتعددة ومتقاطعة، وبما هي قدرة على التكيف و التسوية والابتكار والبحث عن الربح والمتعة والتخلص من سلطات متراكمة وقديمة، تبدو للشخص المكفر باعتبارها الشر كله، ولهذا فإن التمسك بهوية أصلية، مختلفة أو حقيقية، أشبه بدخول الجنة، وهذا يفسر حماسة المكفر وتشفه وقدرته على أن يضحي بنفسه من اجل اهدافه أو قدرته على احتمال العزلة ومشاعر الاغتراب(٩). وعليه، فإن من الممكن ايراد اسباب محتملة للظاهرة التكفيرية الناتجة اصلاً عن أزمة تاريخية عميقة، وذلك على النحو الآتي:

التكفير بوجه من الوجوه تعبير عن ازمة في الهوية وخاصة بعد فشل التيارات القومية وتدرجاتها، الناصرية والبعثية، والتيارات الماركسية بألوانها اللينينية والماوية والتيارات الليبرالية الوطنية والبرجوازية، وفشل الدولة الوطنية ودولة العشيرة ودولة الاسرة والحزب الواحد والعسكرتاريا، وكذلك فشل التيارات الاسلامية الاصلاحية والسلفية والصوفية. هذا التمزق والفشل والفوضى والهزيمة، يقود فيما يقود الى الازمة التاريخية التي نتجت عنها والتي تنتج الشخصية العصابية(١٠).

التكفير تعبير عن أزمة تطال الشرعيات جميعاً، وهو أمر مرتبط بأزمة الهوية اصلاً، اذ ان هذه الأزمة تؤدي الى انهيار الشرعيات جميعاً، مما يقود الى شعور حاد بالاغتراب وعدم السوية والعجز وانعدام الأمن وغربة النفس. وانهيار الشرعيات يعني الفشل في معظم المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية،

مما يحول الشرعيات الى شرعيات مشكوك في تمثيلها وصدقيتها، مما يوفر الارضية الخصبة لظهور التكفير، فكراً وجماعة وسلوكاً (١١).

التكفير تعبير عن شيوع الفساد والقهر وهو امر معتاد عندما تغيب شرعية النظام أو لضعفه أو لقصوره عن توفير شروط الحكم المقبول والمستقر، فالأنظمة غير المستقرة وغير المقبولة، هي غير شرعية، ولأنها كذلك، فانها تقوم بفرض شرعيتها عن طريق القوة وافساد الناس واسكاتهم واشغالهم، ولهذا يتحول التكفير الى حل يائس وانتحاري (١٢).

التكفير تعبير عن الهزائم العسكرية والاحتلالات المختلفة، اذ ظلت الدول العربية في معظمها مرتبطة بعلاقات وثيقة مع المستعمر، هذا فضلاً عن احتلال فلسطين على دفتين خلال هزمتين مدويتين شكلتا جرحاً جمعياً يغوص عميقاً في الثقافة والوجدان، وعلى مدى مئة عام تقريباً، فإن العالم العربي والاسلامي وقع وما يزال تحت وطأة التنافس الدولي الحاد. الهزيمة العسكرية والاحتلالات للاراضي العربية والفشل في التحكم بالثروات الوطنية والتحالفات مع اعداء الأمة، كل ذلك يدفع الى ردود افعال عنيفة وحادة وصلت عميقاً الى التكفير (١٣).  
التكفير تعبير عن صدمة الحداثة، حيث انقسمت النخب العربية في مواجهتها ما بين منبهر تماماً ومستسلم لها بالكامل، وما بين تيار يرفضها بحجة الأصالة والاصولية، كل ذلك على خلفية من العجز والفساد والقهر والفشل. هذه الأزمة عززت شعور النقص تجاه الغرب ومنجزاته من جهة، كما عززت الشعور بالاغتراب والانفصام عن الواقع من جهة ثانية، وقد وجدت هذه الفجوة ترجمتها سياسياً واجتماعياً، الامر الذي أدى الى صدام بين الحاكم والمحكوم، وبين التيارات الفكرية والعقائدية، وقد اضطرت النخب الحاكمة لمواجهة مثل هذه المواجهات الى ان تنشئ مؤسساتها ورموزها الدينية التي أولت النص القرآني بما يخدم مصالحها وبقائها وتحالفاتها، وهو امر سهل لجماعات التكفير ان تقوم بذلك ايضاً، وهكذا، تحول النص الالهي مرة اخرى الى أداة سياسية (كما حالة الخوارج) تبرر لكل فريق ادعاءاته (١٤).

اي أن النظام الحاكم- وهو عادة ما يكون في وطننا العربي عاجزاً وفاشلاً ومرتهناً- اضطر الى ان يواجه الجماعات التكفيرية بتأويلات للنص المقدس من خلال المؤسسات الدينية الحكومية، وهو بذلك يمنح الجماعات التكفيرية الحافز الكامل لأن تفعل ذات الأمر. وبدلاً من أن يقوم النظام باصلاح ذاته وتقديم مقترح عملي لتغيير الأوضاع، فإنه يقوم بمحاولة بائسة ويائسة لتاويل كلام رب العالمين، الذي يرفض الظلم والقهر والذل والفساد والتبعية والاحتلال. وهذا يقود الى القول ان الأنظمة الحاكمة في معظمها تتقاسم العطب والمسؤولية مع الجماعات التكفيرية في توتير الأوضاع وتسريع الاصطدام وتدمير كل ما تبقى من هياكل قديمة. وكما قيل، فإنه من الطبيعي أن تتغير الجغرافية اذا تحرك التاريخ، ولهذا، نحن على أبواب تغيرات عميقة سنشهدا قريباً في عالمنا العربي والاسلامي.

التكفير على أيامنا هذه يأتي على خلفية تعمق الاحتلالات وهدم الأنظمة والاضطراب الطائفي وانتهاء دعاوى الاستقلال بالقرار أو الثورة أو حتى خطة التنمية، وكذلك على خلفية الفشل الذريع في المشاريع النهضوية وارتكاس المجتمعات والأنظمة وتجردها من القدرة على المنافسة أو المقاومة الا فيما ندر. التكفير يبدو وكأنه رغبة بالموت أكثر منه رغبة بالحياة.

### سيكولوجية المكفر:

انشغل باحثون كثر في رصد شخصية المكفر وطرق تفكيره واتجاهات سلوكه، من منطلق أن المكفر شخصية عصابية تتميز بالرغبة في الانعزال والانكفاء والتوهم والشدة والتشدد في السلوك، ورغم التغيرات التي طرأت على شخصية المكفر الا انها تظل تتميز بملامح عامة نؤطرها كما يلي (١٥) :

هناك اضطرابات في آليات التفكير التي يعتمدها المكفر، اذ ان طريقة تفكير المكفر لا تتدفق بشكل هادف وموجه للأفكار والرموز والتداعيات، اذ سرعان ما ينحرف هذا التدفق في شكله أو مجراه، لقصور في الادراك أو افتقار للمعرفة أو في قصور الطريقة التي تستخدمها للوصول الى المعرفة.

المكفر عادة ما يكون متحيزاً وصاحب نظرة جزئية في التفكير وهو ما يسميه علماء النفس خطأ المسار الواحد حيث يميل الفرد الى تجاهل عوامل هامة في عملية الحكم النهائي، ويعود ذلك الى ما يسميه علماء النفس ايضاً الى ”السمات الانسحابية“ في التفكير لقلة مصادر المعرفة أو بسبب الخوف المترسخ في اللاشعور، أما التحيز فيعود الى التعصب. ان ذلك كله يقود الى الاهتمام بصغائر الامور وعدم القدرة على الاستماع وكثرة المقاطعة والانشغال بالدفاع عن النفس.

المكفر يميل الى العجرفة والغرور وذلك بسبب قلة العلم والمعرفة، ومن مظاهر ذلك العجب بالنفس والتهجم واتهام الآخرين بالجهل والاحساس بالرضى الذاتي.

المكفر يعتمد على الحكم الأولي كأساس للتفكير، ومن سمات ذلك عدم استخدام التفكير للوصول الى الحكم وانما استخدامه من أجل الدفاع عن حكم تم اصداره سلفاً على اساس التحيز أو العاطفة أو الاعتقاد او الاعتماد على التكتل الاجتماعي.

المكفر عادة ما يعتمد الحكم النقيض أساساً للتفكير، وهو التأكيد على صدق الحجة بابرار خطأ منطقي في الحجة المعارضة، ليصل المكفر الى القول ”انت على خطأ ومن ثم فاني على صواب“.

المكفر عادة ما يضمن ذاته في اصدار الحكم، ومن سمات ذلك ان يتحول الموقف الفكري جزءاً من ذات المكفر وشخصيته، وهو ما يفسد التفكير المتزن والموضوعي(١٦).

### طرائق التفكير هذه تقتضي بالضرورة شخصية محددة للمكفر تتميز بالآتية:

المكفر يميل الى العزلة، وهي عزلة شعورية وعزلة جسدية وعزلة اجتماعية وفي حالة الظاهرة التكفيرية الحالية، فهي عزلة مكانية ايضاً (الدولة الاسلامية الحالية وبعد سيطرتها على مساحات واسعة من الاراضي جعلت من ذلك خطوة أولى نحو ما تسميه ادارة التوحش)(١٧).

المكفر عادة ما يكتمل قبل الأوان وذلك بسبب العزلة حيث يلتزم بالعقيدة الجديدة التزاماً كاملاً وحاداً مما يدفعه الى مرحلة الاكتمال قبل الأوان في سن مبكرة.

المكفر عادة ما يعيش ما بين قطبي معادلة تقوم على "الدونية والاستعلاء" فهو يشعر بدونية وعجز بسبب عزلته، وسرعان ما تتغير هذه المشاعر الى استعلاء اذا انضم الى جماعة متشددة تمنحه احساساً بالتفوق(١٨).

المكفر عادة ما يُظهر ميلاً الى العدوانية وحماساً في عمليات الدعوة والنشر والترويج.

المكفر عادة ما يبحث عن أدوات السيطرة والقوة للتغيير السياسي والاجتماعي.

المكفر عادة ما يظهر ميلاً كبيراً نحو عدم التسامح مع المخالفين.

المكفر شخصية ارتيائية تميل الى الايمان بوجود مؤامرة دائمة ومستمرة ولذلك يميل عادة الى تقسيمات حادة ونهائية، وهذا ما يفسر سرعة تشكيل التنظيم السري.

المكفر يتميز بتقديم نماذج رفيعة للمثالية والاخلاص للقضية التي يدافع عنها، وهذا ما يفسر الحماسة والقدرة على التضحية بالنفس والعائلة والمستقبل.

المكفر عادة ما يظهر طاعة واذعناً شديداً لأوامر جماعته وتعليمات قائده(١٩).

### التكفير والفقہ:

ربط الفقہ الاسلامي التكفير بالظاهر من القول، اي القول الواضح الذي لا لبس فيه ولا موارد أو تورية أو يحتمل المعاني المتعددة. لأن الفقہ الاسلامي علق تهمة التكفير بالنص الشرعي الواضح الصريح الذي لا لبس فيه والذي حدد من هو الكافر ومن هو المؤمن، اي ان الفقہ الاسلامي لم يربط مسألة التكفير لا بالاستهجان العقلي، ولا يحدده الا ذوو الاختصاص المخلصون من الهوى والمصلحة. فالتكفير أولاً وأخيراً، حكم شرعي، ذلك ان التكفير دعوة للقتل، قتل جسدي ومعنوي وتجريد من الهوية الكلية

والفرعية، ولهذا تشدد الفقهاء المسلمون في مسألة التكفير هذه، وحددوا شروطاً أربعة لها هي: ثبوت الكفر بالقول أو الفعل أو الترك بشكل واضح، وثبوت قيامه بالمكلف حتى ينتفي الظن أو الشبهة أو الخبر الكاذب أو الاشاعة، وبلوغ الحجة، واخيراً انتفاء مانع التكفير في حق المرء، أي أن لا يكون صغيراً أو مجنوناً أو مجبراً(٢٠).

اما على ايماننا هذه، فقد اختلط الحابل بالنابل وتوسعت دائرة التكفير وتحلل المكفرون من شروط أهل السنة والجماعة في ذلك. فصار التكفير لمجرد ارتكاب معصية، وكُفّر الحاكم واتباعه بغير ما انزل الله، وكُفّر المقيم الذي لم يهاجر في المجتمعات المسلمة المعاصرة وكُفّر المعين دون اعتبار للضوابط الشرعية، وكُفّر من لم يكفرهم. وكُفرت المجتمعات الاسلامية بحجة الجاهلية، وكُفّر من مات وليس في عنقه بيعه.. الخ..(٢١). ان التوسع في دائرة التكفير وضم اناس وجماعات لها يعني وجود احتقان وتطرف وغلو في قراءة النصوص الدينية وتأويلها وتوظيفها لخدمة الأهداف التي تضعها تلك الجماعات، ولانسى هنا ان بعض الأنظمة الحاكمة انما تقوم بذات الفعل من أجل شرعنة وجودها وبقائها.

### التكفيريون والأنظمة الحاكمة:

كما ذكر آنفاً، فإن معظم الأنظمة، وبغض النظر عن مضامين ومقولات تلك الأنظمة، يسارية أم قومية أم قبائلية، تقدمية أم رجعية، فقد تعاملت مع الحركات التكفيرية خلال القرن الماضي وحتى الآن اما بالقهر والقمع، كالملاحقة والقتل والسجن والمحاورة وتكميم الأفواه والمنع من العمل أو السفر، وقد شهدت سنوات السبعينات والتسعينات من القرن الماضي مواجهات عسكرية حادة بين تلك الأنظمة والجماعات التكفيرية كما رأينا ذلك في مصر والجزائر والسعودية والعراق وسوريا، وهي مواجهات لم تحسم المواقف ولم تقض على الظاهرة التكفيرية لأن أسباب ظهورها ظلت كامنة. أما الاسلوب الثاني الذي اتبعته بعض الأنظمة الحاكمة فقد تمثل في الاحتواء والاقناع والمهادنة من خلال الحوارات والمراجعات واستخدام البدائل والاغراء والدمج وحملات الاعلام والتثقيف، وهو اسلوب ادى الى بعض النتائج المرحلية كما في سوريا ومصر و حتى الجزائر بشكل أو بآخر. وبرأيي فإن أساليب الأنظمة الحاكمة، العنيفة منها واللطيفة لم تؤد الى النتائج المرجوة، اذ كان من الاجدى ان تقوم تلك الأنظمة بتغيير اتجاهاتها ومقولاتها وسياساتها وتجفف منابع التشدد والغلو من خلال السياسات الفاعلة والناجعة، وكما نتمنى الآن ونحن نكتب هذا الكلام في بداية ٢٠١٦ ان تعتبر الأنظمة الحالية من تجارب السبعينات والتسعينات.



## موجات التكفير الثلاثة:

كما ذكر آنفاً، فقد شهد العالم العربي والاسلامي ثلاث موجات تكفيرية، في سبعينات القرن الماضي ثم في تسعيناته، وأخيراً في السنين الأولى من الألفية الثالثة، ويمكن القول ان كل موجة كانت أوسع وأعمق وابتعد أثراً من الموجة التي سبقتها، ويمكن القول أيضاً أن كل موجة كانت تتضمن الموجة التي تليها، الى ان استطاعت الموجة الأخيرة ان تمتلك الحيز المكاني الى درجة انشاء "دولة" وهو تطور جديد لم تحلم به الخوارج في القرن السابع الميلادي. وهذه مقارنة أولية بين الموجات الثلاثة بشكل أولي. (انظر الشكل).

الموجة	الزمان	المكان	الدعوة/الهدف	الصراع مع الدولة	النتيجة
الأولى (التكفير والهجرة) مصر	من الستينات حتى الثمانينات	مصر، سوريا، العراق، الجزائر السعودية	تكفير المجتمع، الانقلاب على السلطة أو على كليهما	يؤر مواجهة متفرقة، اغتيالات، تفجيرات الدولة كانت اقوى في المواجهات العسكرية و الاعلامية.	القضاء على معظم تلك الحركات أو احتوائها.
الثانية (الأفغان العرب)	من الثمانينات وحتى بداية الألفية الثالثة	أفغانستان، الجزائر، مصر، سوريا، لبنان، دول افريقية، السعودية	مواجهة السلطة الحاكمة، اغتيالات، تفجيرات، نشر الدعوة	قلة الحركات التكفيرية، محدودية ساحات المواجهة. الدولة كانت قوية و كذلك تلك الحركات.	لم يتم الحسم العسكري و لا الاعلامي مع تلك الحركات.
الثالثة (القاعدة والداعش)	بدأت بسقوط بغداد عام ٢٠٠٣	الاقليم العربي والاسلامي وبعض دول افريقيا و آسيا	اقامة الدولة الاسلامية، اعادة الخلافة، تكفير الانظمة و من يدعمها.	المواجهة العسكرية الشاملة، الدولة فقدت قوتها الاستعانة بالاحلاف	الصراع ما يزال مستمراً.

وحسب منهج هذا البحث، فإن كل موجة من الموجات الألفية الذكر كانت تعبيراً عن انسداد الأفاق وظهور أزمة تاريخية عميقة، فالموجة الأولى شهدت فيما شهدت هزيمة ١٩٦٧ وما آلت إليه الأوضاع في العالم العربي، اما الموجة الثانية فقد شهدت اصطفااف العرب مع امريكا في حربها ضد روسيا على الأراضي الافغانية و انهيار العالم ذي القطبين واستفحال الاستيطان واندلاع الانتفاضة وتراجع النفط كسلاح أو كتنمية واشتداد القبضة الأمنية لمعظم الأنظمة واشتداد الأزمة الاقتصادية، أما الموجة الثالثة، فقد تراكمت مع سقوط بغداد و بدء التنافس الدولي على منطقتنا وقدرة اسرائيل ان تجد لها مواقع اقدام عديدة في نسيج هذا الاقليم تحت مسميات كثيرة. ولكن الملاحظ، وهذا امتداد وتأكيد على ما نقول انه ومنذ خمسين عاماً فقد فشلت الأنظمة الحاكمة في ان تقدم نموذجاً للحكم الرشيد الذي يكبح ظهور المكفر ودعاواه التي تتحول الى ان تكون جاذبة لأجيال يائسة وغازبة ومحبطة (٢٢). كما ان من الملاحظ

ان الموجة الثالثة حققت ما عجزت عنه الموجتان السابقتان، اي قويت تيارات التكفير وضعت الدولة القطرية أو القومية أو الوطنية، وهذا مؤشر خطير، لأن حركة التاريخ يتبعها تغير في الجغرافيا، وهذا يعني اننا مقبلون على تغيرات جيو سياسية، وبغض النظر عن كون التيارات التكفيرية اداة غريبة أو انها خرجت عن السيناريو أو انها تخلت عن الأدوار المرسومة، أو انها صاحبة رسالة حقيقية، الا ان من الواجب القول ان هناك خطراً حقيقياً يهدد هذه المنطقة، فإما الغياب عن المشهد الحضاري والأنساني وأما الحضور، وهذا يعتمد على النخب التي عليها أن تكتشف حجم وعمق الهوة التي كنا فيها أو التي نندفع نحوها.

### التكفير في الحالة الفلسطينية:

نعتقد بعدم وجود حاضنة للفكر التكفيري في فلسطين عامة، ذلك ان الفلسطيني بحاجة الى توحيد الجهود لا تفريقها بسبب من ضياع الارض والسيادة والكرامة، حتى الفصائل والحركات ذات التوجه الاسلامي كالجهاد وحماس لم تخف رفضها لفكرة التكفير او حتى التنديد به، هذا فضلاً عن باقي الحركات و الاحزاب الفلسطينية التي لا تخفي توجهاتها العلمانية، ولكن هذا الكلام لا يجب ان يكون مطمئناً ابداً، ذلك ان الفكر التكفيري والحركات التكفيرية الآن تلوح بما هو جاذب ومنافس وخاصة للشباب وربما غير الشباب، ففشل التنظيمات الفلسطينية وتدهور المشروع الوطني وانعدام الأفق السياسي وشيوع البطالة والفقر والعنف وسيادة الشعارات الدينية وتوحش الطغمة الحاكمة الاسرائيلية واتحاد التيارين القومي والديني المتطرف في اسرائيل والموت المجاني وعمليات الاذلال والأهانة والاستيطان، كل ذلك قد يدفع الى وجود أنوية أو خلايا قد لا تكون جماهيرية، ولكنها ترحب بفكر التكفيرين وتنفذ اجنداته. و برأينا فإن برنامجاً للمناعة الوطنية المرتكزة على بديلاً عن تغلغل الفكر التكفيري في الأرض الفلسطينية.

### المراجع:

١. د.أحمد رفيق عوض، د.محمد المصري، رؤية جديدة للظاهرة التكفيرية، المركز الفلسطيني للبحوث والدراسات الاستراتيجية، رام الله، ٢٠١٥، ص ٢٢ وما بعدها.
٢. د.عماد الدين خليل، التفسير الاسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١، ص ٦٠ وما بعدها.
٣. د.ناصر عبد الكريم، الخوارج أول الفرق في تاريخ الاسلام، الرياض، دار اشبيلية، ١٩٨٩، ص ٤٠ وما بعدها.

٤. المصدر السابق.
٥. د. فهمي جدعان؛ المحنة: بحث في جدلية الدين والسياسي في الاسلام، وكذلك، الطريق الى المستقبل؛ أفكار وقوى للأزمة العربية المنظورة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١٩٩٤، ص٧٠ وما بعدها.
٦. الشيخ محمد ابو زهرة، تاريخ المذاهب الاسلامية، ص٤٩٣ وما بعدها.
٧. المصدر السابق.
٨. د. أحمد رفيق عوض، مصدر سابق، ص٥٠.
٩. د. محمد بن جماعة، التكفير دائرة في تصوير الهوية في الخطاب الاسلامي المعاصر، بحث مقدم الى مؤتمر "ظاهرة التكفير: الأسباب والأوتار والعلاج" الذي عقد في جامعة الملك بن عبد العزيز بمدينة الرياض، سنة ٢٠١٢، ص١٥.
١٠. للمزيد حول ذلك، مالك البدري؛ التكفير من المشاهدة الى الشهود، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، ط١، ١٩٩٥.
١١. ريتشارد هرير دكمجيان، الأصولية في العالم العربي، ترجمة وتعليق عبد الوارث سعيد، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ١٩٨٩، ص٣٢ وما بعدها.
١٢. د. مصطفى حجازي، الانسان المهذور، دراسة نفسية واجتماعية، المركز الثقافي العربي، ط٢، الدار البيضاء، المغرب، ص١٩٨ وما بعدها.
١٣. المصدر السابق، ص٢٠٥ وما بعدها.
١٤. المصدر السابق، ص٢١٠ وما بعدها.
١٥. نور كينجيا، الأسباب النفسية لانتشار ظاهرة التكفير، اخطاء التكفير ومشكلاته من منظور علم النفس العيادي، بحث مقدم الى مؤتمر التكفير الآنف الذكر.
١٦. ادوارد ديبونو، قبعات التكفير الست، ترجمة خليل الجيوسي، مراجعة عبد الله البيلي، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ص١٤١-١٥٩.
١٧. أبو بكر ناجي، ادارة التوحش، دار التمرد، دمشق، ٢٠١٤، ص٢٠ وما بعدها.
١٨. دكمجيان، مصدر سابق، ص٥٦ وما بعدها.
١٩. المصدر نفسه، ص٥٧ وما بعدها.
٢٠. د. عبد الله القرني، ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة، مؤسسة الرسالة، ط١٤١٣، هـ.
٢١. المصدر السابق.
٢٢. دكمجيان، مصدر سابق، ص١١٥ وما بعدها.